

التعدد والاختلاف الثقافي وإمكانات التشييد والحوار عند فرناند دومون

أ.شاشو محمد⁽¹⁾

د/براهيم أحمد⁽²⁾

مقدمة :

ما معنى أن نعيد طرح مسألة الثقافة ، والحوار الثقافي وإمكانات البناء والتشييد من الاختلاف والتعدد ، وتحديدًا من داخل كيان فلسفة الثقافة (la philosophie de la culture) كما تبنت مع فرناند دومون (Fernand dumont)⁽³⁾ .

ألم تدفعنا الحاجة الى ذلك ؟ ألم يدفعنا الواقع المأساوي الذي يشهده العالم الى إعادة تشريح أزمة الثقافة وفق المنظور الدوموني ؟ ألا يمكن اعتبار الرؤية الدومونية رؤية ملهمة لكل الفاعلين في هذا العالم من دون اغفال الاختلاف الزماني والمكاني ، أي التاريخي والاجتماعي لهذه الرؤية ؟

كيف يمكن لنا أن نحدد اليوم أكثر من أي وقت مضى رؤية تحتضن الكل وتضمن البعد الإنساني فينا ؟ إن الغرض من خلال الإقامة بين ثنايا الفكر الدوموني ومحاورة فلسفته ليست لشيء إلا لغرض تتبع خطاه الفكرية حول الثقافة ، والانسان ، وإمكانات البناء من المختلف والمتعدد فينا ، عبر البحث في المعنى كحضور وفاعلية يميز هذه الثقافة من تلك . فالغاية اذن تقتزن بالاشتغال على الراهن والمعاش ، لفتح المنغلق وبعث آمال تكون في مستوى تطلعات مجتمعاتنا.

1/- في البدء أزمة ثقافة :

لا يمكن الحديث عن فلسفة دومون من دون العودة الى الواقع الذي عايشه ، والذي يحكي مجموع ثقافات مختلفة تحيا جميعها داخل الفضاء الكيبكي ، أين نجد لكل ثقافة ايقاعها وبصمتها بما يخدم حضورها وتوجهها الأيديولوجي ، والمرتبط عموماً بما شكلته من تصورات عبر حقب من تاريخها الإنساني ، ونحن بهذا أمام ذاكرة محفوظة لها حضورها الوجودي والوجداني داخل كل جماعة في هذا الفضاء . هذا الوضع الإنساني المقلق دفع دومون الى العمل على فهم واقعه ، ومحاولة تشخيص العلل والأمراض الموجودة داخل مجتمعه ومن ثمة العمل على معالجتها وتغييرها . هذا التوجه النقدي -العملي هو «تساءل عن الموضوع الذي ينطلق منه من أجل أن يكشف بطلان الأوهام ويعيدها الى الواقعي»⁽⁴⁾ .

1 - باحث بجامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم-الجزائر.

2- أستاذ محاضر بجامعة عبد الحميد بن باديس .

3 - فيلسوف الكيبك كما يلقب ، ولد في 24 جوان 1927 هونتمورانسي بالكيبك بكندا ، له كتابات عديدة في علم الاجتماع وفي اللاهوت والشعر ولكن أهمها كان في الثقافة ، أستاذ سابق وباحث بجامعة لافال بكندا ، توفي في 01 ماي سنة 1997 م ، تاركا وراءه دراسات مهمة حول الانسان والثقافة.

4 - fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 2 ,philosophie et science de la culture 1,PUL ,Québec ,2008,p607 .

يعني أن دومون انطلق من عالمه المعيش، **فالهوية** الكيببكية ومن ورائها الكندية مجموع انتماءات، أي ثقافات مختلفة المشارب والتوجهات. بمعنى آخر إننا مع دومون أمام مجموع تصورات حفظها الذاكرة اتجاه الذات، والعالم، وكل ما هو موجود في هذا الوجود. هذه الذاكرة تحفظ تجارب إنسانية لاتزال حية فاعلة على أكثر من صعيد ومستوى داخل كل جماعة. إننا بهذا كمرحلة أولى مع دومون أمام مجموع أيديولوجيات، تتمثل كل جماعة من هذه الجماعات أيديولوجية معينة .

هذا الوضع زاده العقل الأداتي تأزما، والذي عمل على خلق ثقافة جديدة زادت من توهان الذات، وانفصالها عن واقعها وماضيها، أي انزياحها من هويتها. والعقل الأداتي امتداد للثقافة الحديثة التي كانت نتائجها وخيمة على الانسان عكس ما زعمت في بداياتها .«ثمة -والقول هنا لدومون - في هذا المجال ضرب من قبلية الثقافة الحديثة. فالثقافة الحديثة تنزع، من حيث كونها ثقافة، إلى ألا تتعين بوصفها واقعية. ولقد أوضح الكثيرون غالبا، وبكل الوسائل، أن للتقنية في حضارتنا كثافة، وبالتالي استقلالا ذاتيا أكبر»⁽¹⁾، فالعقل الاداتي بهذا وفق المنظور الدوموني زاد من الهوة، وخلق أزمة مضاعفة داخل المجتمع الكيببكي، أزمة أولى شبيهة بتلك التي شهدتها المجتمعات الأوروبية، والتي كانت نتيجة لهيمنة النزعة الوضعية (العلمية)، وأزمة ثانية تمثلت في الصراع الثقافي/الأيديولوجي، ما جعل الكيببكي تعاني اجمالا أزمة هوية، أي أزمة وعي ومعنى وحضور لثقافات متعددة ومختلفة .

هذا التحدي الراهني الذي تواجهه الكيببكي يحتاج حسب دومون الى روح نقدية مسؤولة تأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي والاجتماعي الذي تتواجد عليه الكيببكي، أي العمل إيجاد بديل يحفظ وجودها ويخدم مستقبل اجيالها، وهذا لن يتأتى الا عبر وحدة الثقافة نفسها حسب دومون .ثقافة تحفظ للفرد حريته وانتماؤه، وتمكنه من التعبير والابداع بما يخدم عالمه المعيش .يقول دومون :«إن الأهمية الحاسمة التي اتخذها في مجتمعاتنا ، الخطاب القيمي حول وحدة الثقافة ، إنما نشأ إذاً، في نهاية الأمر ، بفعل الدمار الذي أصاب الاجماع الاجتماعي والذي يزداد وضوحا .إن مهمة التعبير ،أي مهمة انتاج الوحدة تنبعث الآن مع أعماق الوجود الجماعي»⁽²⁾،

2- / الثقافة بوصفها أيديولوجيا :

من خلال ما تقدم فإننا مع دومون أمام مجموع رؤى وتصورات مختلفة داخل مجتمع واحد، حيث تسعى كل ذات الى فرض رؤيتها على الآخر المختلف والهيمنة على الحياة الروحية والعملية داخل هذا المجتمع ،على اعتبار أنها المالك الوحيد والأوحد للحقيقة، وهي في المنظور الدوموني مجتمع متصارع أيديولوجيا.»إن الأيديولوجيا -والقول هنا لدومون- هي المجتمع بوصفه مشاحنة .إنها المجتمع الذي يسعى إلى أن يحدد ذاته في صراعات وتناقضات»⁽³⁾ .

بهذا فالمجتمع الكيببكي يمثل بحق نموذجا تتصارع فيه الأيديولوجيات، والإيديولوجيا في نظر دومون هي «بصورة رسمية ،فكرة الآخر (...)إنها حقيقة ترمي إلى أن تؤمن الاجماع الذي لا بد منه للأعمال

1 -ibid ,p609.

2 -Ibid ,p653.

3 -fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P601

السياسية ،ولكنها تلبث بعيدة عن الشعور الذي تستقر فيه ،بصورة فرضية ،قناعات وضروب من المحاكمة ومبادئ أكثر رسوخاً»⁽¹⁾، ما يعني أن للأيديولوجيا اهداف عملية غرضها الهيمنة والاستمرار ، أقصد بهذا المستوى الوظيفي للأيديولوجيا الذي يعمل على ترسيخ رؤاه من خلال الهياكل والمؤسسات الذي تمثله ،لكن تبقى هذه الوظائف ضارة اذا اهتمت البعد الإنساني ،وهذا ما تجلى بوضوح عبر حقبة التاريخ المختلفة ،فدائماً ما تدعي الأيديولوجيات ضرورة ترسيخ قيم جديدة ،أي ثقافة جديدة ،ولكنها في الواقع أيديولوجيا «مقامة باسم الوظائفية»⁽²⁾ ،من دون الالتفات الى الانسان .إنها باختصار **ثقافة الهيمنة والسيطرة** التي يختبئ وراءها الساسة .

بمعنى آخر أكثر اتساعا يرى دومون في الأيديولوجيا «**الصور الثقافية** الأكثر وضوحا ،فيها تجد ضروب التحيز مبرراتها وتنمو بالمعارف والرموز .فالفئات الاجتماعية تعتنقها ،وهي تولّد حركات اجتماعية .إن لها وسائلها في الانتشار وأساليب معقدة في البرهنة ودلالات جاهزة للوقائع والأحداث التي تطرأ»⁽³⁾ ،فالأيديولوجيا بهذا رؤى مستمدة من ثقافات معينة ،هذه الثقافات تعتنقها الجموع على اعتبار أنها الحقيقة التي يجب الوثوق بها.

3/- رؤية العالم وعلاقتها بالثقافة :

إن الثقافة ،أي ثقافة كانت هي الذاكرة التي تحفظها الذات عن نفسها عبر محطات التاريخ العديدة والمتعددة ،إنها مجموع التصورات التي يشكلها الافراد وتحفظها الجماعات عن الذات والآخر **و العالم** ،«فالعلاقة بالعالم هي علاقة تصورية في الإدراك قبل أن تكون علاقة سلوكية في التفاعل»⁽⁴⁾ ،وبحكم التعدد الثقافي الكيبيكي ،وتعدد الاشكال التعبيرية (الرموز العديدة :دين ، فن ،علم ،عادات ، تقاليد....الخ) داخل كل ثقافة ،فإننا بهذا مع دومون أمام مجموع رؤى مختلفة .والرمز بالنسبة لدومون «هو أول توزيع للمعنى في العالم لأنه يكشف صلة القرى بين ضروب الدال بالمدلول .وهو بالحركة نفسها ،توزيع للذوات :إنه يجعل مرساها في أوضاع مشتركة بقدر ما يسمح لها أن تعطي معنى الى وضعها هذا»⁽⁵⁾ ، ما يعني أن كل ذات تستمد سلوكها ومختلف أفعالها من مختلف الاشكال التعبيرية الخاصة بالثقافة التي تنتمي اليها ،«فالعالم هو ثقافة ،ترميز تدريجي للتجربة التي يختبرها الناس حول ذواتهم وحول الأشياء .الثقافة بوصفها «طبيعة ثانية» هي فهم العالم ،ذلك الفهم الذي يضع نظاما ثابتا في الأعمال والمؤسسات»⁽⁶⁾ ، أي كل ما يتمظهر في سلوك الافراد وعلاقاتهم الاجتماعية ،وكل ما يتبدى من عادات وتقاليد ،والتي تأخذ أبعادا ملموسة سواء كانت فكرية من خلال تثبيتها في اللغة كأحد أهم الرموز التعبيرية للثقافة فعالية ،أو في هياكل سياسية وقانونية .إن الثقافة بهذا الملهم

1 -Ibid ,p600.

2 -Ibid ,p610.

3-Ibid ,p 600.

4 - محمد شوقي الزين ،الثقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،منشورات ضفاف ،منشورات الاختلاف ،دار الأمان ،المغرب ،الجزائر ،لبنان ،ط1 ،2014 ،ص431

5 - fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P 670

6 - محمد شوقي الزين ،الثقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،مرجع سابق ،ص438.

الأول لأي جماعة ،ليس فقط باعتبارها معطى بل باعتبارها بناء يتجدد باستمرار ،«فالفعل هو كشف مجال وكشف أفق .إنه يتجلى في حقل الممكن .ولا بد له أيضا من أن يغربل ويختار :ذلك أن عليه أن يرد المجال إلى وضع مرسوم والافق الى غاية محددة .وليست هذه السيرة المزدوجة سابقة على الفعل ،بل انها ما يكسب الفعل صورة «⁽¹⁾» .

4/- النقد كأفق لتجاوز الانسداد الثقافي والاجتماعي :

يستعين دومون في معالجته للأزمة الثقافية التي شهدتها مجتمعه بكل ما انتجته علوم الانسان والمجتمع من أدوات ومناهج ، أقصد أنه استعان بالروح العلمية والنقدية لعصره ،والتي اتاحت له امكانية تناول الظاهرة محل الدراسة (أقصد أزمة الهوية) بوسائل وأدوات منهجية عديدة ومتعددة ،حيث يرى سارج كانتين «(serge cantin) أن الروح النقدية لدومون استقت معالمها من مختلف التيارات الفكرية والفلسفية التي شهدتها الحقبة المعاصرة ،«فهذه الروح الانفتاحية والحوار مع مختلف التيارات الكبرى في الفكر المعاصر ،روح يمكن اعتبارها مسكونية⁽²⁾ (على طريقة المجمع المسكوني)⁽³⁾» ،والتي ترى في العقل ضابط الإيقاع والفيصل (الحكم) الذي بإمكانه إزالة وكشف التلاعبات الظاهرة والخفية التي كان المجتمع الكيبكي مسرحا لها .«فليس للعقل الهادئ المتأمل من مهمة غير أن يكشف ويعكس العوامل الملائمة أو غير الملائمة لوظائفية غاية في الاتقان ،وظائفية واقع اجتماعي حريص على شرط وجوده «⁽⁴⁾» .إننا بهذا بهذا مع دومون أمام مهمة شاقة على العقل أن يضطلع بها -كما تجلى ذلك مع كانط - لقراءة الواقع انطلاقا من معنى فاعل له حضوره تاريخيا واجتماعيا .

إن دومون بهذا يحاول إعادة اكتشاف الذات وبعثها من جديد نحو أفق جديد يراعي التعدد والاختلاف ويحفظ للجنس البشري وجوده من خلال إمكانية العيش معا ،كل هذا عن طريق محاكمة نقدية يكون العقل فيها المحقق والقاضي في نفس الوقت .إنه «النداء الموجه الى العقل كي يعود فيقوم بأشق مهماته جميعا ،عنيت معرفة الذات ،وينشيء معرفة تضمن له دعاويه المحققة ،لكي تخلصه في المقابل من كل الادعاءات غير المؤسّسة ،لا بقرارات تعسفية بل بقوانين خالدة وثابتة ،هذه المحكمة هي نقد العقل المحض نفسه»⁽⁵⁾ .

1 fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.p680

2 - معناه اجتماع رعاة ومعلمي الكنيسة من جميع جهات المسكونة (العالم) لمناقشة أمر يخص الإيمان المسيحي بهدف حفظ النظام وسلامة العقيدة بين المسيحيين في شتى أنحاء العالم .ذلك أن مجامع كنسية عدة إلتأمت في القرون الثلاثة الأولى لأهداف خاصة وفي ظروف طارئة لبحث أمور معينة تهّم الجميع .غير أن ما يميز مجمع «نيقية» (اسم المدينة التي عُقد فيها المجمع المسكوني الاول) عما قبله هو أن المجمع الأول «كانت أحداثا أكثر منها مؤسّسة» ،كما يقول الاب جورج فلورفسيكي .وكان مجمع نيقية ،بالتالي ،نموذجا للمجامع اللاحقة ،وذلك لأن إهتداء الإمبراطورية الرومانية جعل الظروف تتغير عما قبل ،فاستلزم وضع الكنيسة الجديد عملا مسكونيا هو بالحقيقة موجود وأصيل في الكنيسة ولكنه بان بشكل مرئي أكثر ،لكن سارج كونتي استعمله هنا اصطلاحا للدلالة على الروح النقدية المنفتحة على كل ما انتجته علوم الانسان من أدوات وعدة منهجية استعملها دومون لإنقاذ مجتمعه ودفعه نحو آفاق جديدة تحفظ كيانه وتؤمن مستقبله .

3-serge cantin ,une herméneutique critique de la culture ,dans l'horizon de la culture ,hommage à fernand dumont ,sous la direction de simon langlois et yves martin ,presse de l'université Laval ,Québec ,1998 ,p48.

4 -Ibid ,p612.

5 -كانط إيمانويل ،نقد العقل المحض ،ترجمة :موسى وهبة ،مركز الاءماء القومي ،بيروت ،لبنان ،د ط ،د س ،ص 26.

فنحن بهذا مع دومون أمام نقد مستويين في الثقافة لمعالجة الواقع :كعتبة أولى نقد المستوى العملي (الفعل /البراكسيس) ،وكعتبة ثانية وهي نقد المستوى الرمزي والمعنوي لهذا الوظيفي ،أقصد أن العالم الموضوعي مجموع معاني لها فعاليتها ،لها حضورها ،في الواقع. هذا الأخير تتطلب دراسته دراسة مختلفة تعنى بمختلف الأشكال الرمزية الحاملة للمعنى خاصة اللغة ،أين تكون الغاية منها خدمة الواقع. بمعنى آخر هناك واقع معاش وجب دراسته ،هناك نسق منظم ومتعدد له ايقاعه داخل المجتمع يبتغي التتبع والدراسة لفتح آفاق جديدة ،فالروح النقدية الدومونية غايتها هنا الكشف عن منابع كل ما هو وظيفي له تأثيره في الواقع ،أي الكشف عن الأذرع الثقافية الفاعلة عبر لعبة التخفي والهيمنة للرمز. وهذا التوجه النقدي هو امتداد لتوجه معاصر جديد ساد الفكر الفلسفي الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،ونقصد بذلك الكانطية الجديدة ،التي نقلت النقد من المستوى المعرفي النظري الى المستوى القيمي العملي ،حيث تتشكل الكانطية الجديدة «من تيارين كبيرين ،تيار مدرسة بادن الذي يتزعمه ريكتر أستاذ هيدغر ،وويندلبود ولاسك ،ويهتم هذا التيار بشكل عام بمسائل القيم. وهناك تيار مدرسة مريورغ ويتزعمه كوهين وناتورب وكاسيرر .ويهتم هذا التيار عموما بمشكلة نظرية المعرفة ،وفكرة النظام المرتبطة بالمنهج المتعالي ومحاولة ربط المنهج بكل الوقائع الثقافية للعلوم والثقافة على حد السواء»⁽¹⁾. فكما هو معلوم شهدت أوروبا أزمة ثقافية كانت نتيجة لهيمنة البراديغم العلمي على كل مناحي الحياة ،ما استدعى العمل على إيجاد نظرة أخرى تعمل على دراسة وفهم الواقع ،والتي تجلت مع كاسيرر في فلسفة الثقافة أو كما سماها «فلسفة الأشكال التعبيرية » ،أين سعى الى انشاء ما يسمى ب: النحو الثقافي ،بحيث يصبح العلم نفسه أحد المظاهر التعبيرية للثقافة التي يحتاج الى دراسة وبحث .

بهذا الشكل أن فلسفة دومن النقدية تهدف الى فتح آفاق جديدة أمام المجتمع الكيبكي من خلال توليد ثقافة بديلة ،تكون وحدة الثقافة الرهان الأول والآخر .«فليس الخطاب القيمي مديحا مجانيا لقيم مقبولة بصورة إجمالية ،بل هو المختبر الواسع الذي يتم فيه اعداد أشكالا للوحدة الاجتماعية والثقافية ومناقشتها .ومن البديهي أن لغة التجميع هذه تتميز عن وحدة الثقافة أو وحدة البراكسيس التي تفترض أنها معاشة .ولم تبد المسافة في يوم من الأيام بهذا القدر من البعد كما بدت في أيامنا هذه بين الثقافة المتلقاة وبين الثقافة النتاج ،بين المعنى الطبيعي وبين الصنع المتجدد»⁽²⁾ .

5/-إعادة بعث الثقافة من خلال الرمز :

هذا الطرح الدوموني يقودنا الى القول : بأننا أمام معطى سابق على الذات له فعاليتها على أرض الواقع ينبغي المراجعة . والذات هنا مطالبة بأن تتحرك بما يخدم عالمها المعيش ،فهي بهذا أمام حتمية إعادة تكوين ذات أخرى مختلفة من ثقافة ثانية .وهذا عبر الفعل اللغوي الذي هو في نظر دومون فعل اجتماعي .ما يعني أن الفعل التواصل قائم على فعل الكلام ،والذي يتيح للذات إمكانية

1 - الزواوي بغورة ،الفلسفة واللغة ،نقد النعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ،دار الطليعة ،بيروت ،لبنان ،ط1 ،2005 ،ص62.

2 - fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.P 654

التصرف. يقول **دومون**: «اللغة سمّت الأشياء قبل أن أقول ذلك بدوري»⁽¹⁾. والفعل اللغوي بالنسبة ل**دومون** أداة لإرساء قواعد الحوار والتفاهم داخل المجتمع الكيبكي وتجاوز حالة الانسداد والهيمنة الأيديولوجية. «اللغة بمثابة عنصر من عناصر الفعل، الأمر الذي لا بد من أن يؤخذ بالمعنى الأدق: إن اللغة هي أداة إذًا»⁽²⁾. للغة تأثيرها على المشاعر، على النفوس، لها فعاليتها على الواقع، وعلى العلاقات الاجتماعية، والمتصرف الدائم فيها هي الذات دائما. انها رؤية مشابهة لتلك التي جاء بها كارل ماركس والتي تعمل على نقل الفكر من النظر الى الفعل أي بجعله **براكسيس** له وقعه على المجتمع، لقد سعى بهذا **ماركس** الى تأسيس فلسفة تعمل على «تحويل الأفكار الى مشاريع والصور الى أفعال»⁽³⁾. وهو بالنسبة ل**دومون** علم الثقافة: «الثقافة برمتها على أنها **براكسيس**، ويجب ذلك. إن علم الفعل هو علم الثقافة أيضا (...) وبما أن البراكسيس فعل فهي فكر، ولكنها فكر من حيث كونها أسلوب أو، إذا شئنا، من حيث كونها استعادة بنى الفاعلية المادية ونتائجها على العلاقات الاجتماعية المتبادلة»⁽⁴⁾.

فالواقع المعاش في نظر **دومون** لا يمكن فهمه وفك طلاسمه الا من خلال «علم شامل للفعل، علم انساني طبيعي قدمت لنا الماركسية مخططاته الأولى»⁽⁵⁾. إنه كما يسميه **دومون** علم الكلام (**logologie**) «إنه هو أيضا علم طبيعي بما أن وجهة نظر الذات مستبعدة منه. فالذات هي من خلق اللغة بوصفها وسطا وبوصفها أداة على السواء، أو أنها ليست سوى الفاعل العرضي لها»⁽⁶⁾. اننا بهذا مع **دومون** أمام إعادة بعث الأنا من خلال فصلها عن الذات وإعادة بعثها من خلالها أيضا. «فالقائمة معزولة عن الآلية، ولكنها تصبح، على طريققتها، نتيجة عملية، نتيجة فعل. والدلالة مصنوعة في نهاية المطاف. وعلى المعنى أن يكون مطروحا لا متلقى مثلما كان من قبل. وينتقل البحث عن المعنى من الاصغاء الى الكشف الى ملاحقة الأهداف (...) بين الكشف وبين النشأة، بين الأدوار الموروثة وبين الجغرافيا المجردة للأوضاع، بين مزج المعنى والعقلانية وبين فصلهما، بين الأنا والفاعل»⁽⁷⁾.

6- الثقافة بأي معنى؟ :

لقد كرّس **دومون** حياته لدراسة الثقافة، وهذا ما نجده في العديد من مؤلفاته، حيث سعى من خلاله الى البحث عن مكان الانسان بما يخدم الانسان، وهذا ما يترجمه كتابه الموسوم بعنوان أول كبير: **مكان الإنسان**⁽⁸⁾ (**le lieu de l'homme**)، وعنوان ثانوي: **الثقافة بوصفها مسافة وذاكرة** (**la culture - comme distance et mémoire**)، والذي يعتبر الكتاب المرجع والاساسي لدراسته للثقافة. لقد أسس

1 - fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1 ,op.cit,p10.

2-fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.p608

3 - محمد شوقي الزين، الثقافة في الأزمنة العجاف، فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، مرجع سابق، ص463.

4 - fernand dumont ,les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit.p620.

5 -Ibid ,p621.

6 -Ibid ,p624

7 -Ibid ,p646648 .

8-fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1 ,philosophie et science de la culture 1,PUL ,Québec ,2008.

دومون من خلال هذا الكتاب لنظرة فلسفية مختلفة يراها كفيلة بمعالجة واقعة المتأزم، حيث ينادي الى ضرورة وضع مسافة بين الذات وذاتها حتى تستطيع الذات نفسها من تجاوز اخفاقاتها وخلق ثقافة بديلة تكون بمثابة الحضان لكل الذوات على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم. «ولهذا نحن نكرر القول باستمرار -والقول هنا لدومون- أن الثقافة هي بالنسبة للإنسان المسافة بين الذات وذاتها، فهي في نفس الوقت أصل الكلام وموضوعه» ⁽¹⁾. إن **دومون** بهذا يفتح للذات الامكانية للتطور والبناء عبر وضع مسافة المسافة التي تضعها الذات مع ما تمتلكه من معاني وتصورات حتى تستطيع تطويرها، أو تغييرها، أو تجاوزها وفق الحاجة ووفق المقتضى. إننا بهذا أمام ثقافتين أولى موجودة أصلاً وثانية تبنى وترسخ باستمرار، فالإنسان هنا دائماً ما يسعى لأقلمة الثقافة الأولى مع السياق العام والتحدي والوضعية التي تجد الذات نفسها فيها. يقول دومون: «عندما أخذ الكلمة فإنني لا أتقيد بجعلها صدى اللغة السابقة التي توفر لخطابي عناصر النطق. أخذ أيضاً لحسابي نوعاً من المسافة بين معنى أول لعالم مشئت في الأفعال الخاصة بسياقي الجماعي وعالم ثان حيث يسعى مجتمعي التاريخي لإكتساب دلالة منسجمة مع ذاتها كأفق مطلوب. هذه المسافة والقطبان هي ما ينبغي إدراكه من مفهوم الثقافة» ⁽²⁾.

ومنه فالثقافة هي تلك المسافة التي تضعها الذات لنفسها بين الثقافة الأولى الموجودة سلفاً بحكم الانتماء والثقافة الثانية التي تتجدد باستمرار وفق السياقات والتحديات والوضعيات، ما يعني إمكانية التطور والتغيير من دون الانفصال عن ما هو موجود قبلاً، وقد اصطلح على هذه الثقافة ذات البعدين **بالثقافة المضاعفة، أو الثقافة المزدوجة (le dédoublement de la culture)**، فكل واحد فينا يجد نفسه أمام ثقافة ما والتي تشكل هويته وانتماءه، إنه بهذا أمام **معطى** معين، لكنه في المقابل نجده دائماً **التركيب** انطلاقاً من التحديات والوضعيات والسياق الذي تتواجد فيه الذات. «الثقافة الأولى -والقول هنا لدومون- هي معطى. يتلقفها البشر بحكم الألفة (التعود) في شكل معاني، نماذج، وفي ذخائر شعبية (أمثال شعبية) متفق عليها: إنها مجموع الأفعال، الأعراف والعادات والتقاليد كشبكة كاملة من قبل أو كل ما يعرف تلقائياً في هذا العالم كما في المنزل» ⁽³⁾. والتي يرى فيها **جوليان ماسيكوت (julien massicotte)** أن **دومون** استند وانطلق من واقع معاش حتى استطاع بلورة مفهوم **الثقافة المضاعفة**، حيث يقول في كتابه الموسوم ب: **الثقافة والهيرمينوطيقا**. الترجمة في مجموعة فرناند دومون: «أن كل دراسة نظرية علمية مهما كانت، تستند على مفترضات مستمدة من التجربة المعيشة: على سبيل المثال مفهوم العمل عند كارل ماركس، مفهوم الاكراه عند دوركايم.... الخ، وهو نفس حال دومون من دون شك بالنسبة لمفهومه حول المضاعفة» ⁽⁴⁾.

7/- من المجتمع التقليدي الى المجتمع الحديث :

من خلال ما تقدم فإننا بهذا مع دومون أمام ثقافتين: ثقافة أولى سابقة تواجدت بالاتفاق في

1 -Ibid ,p06.

2 Ibid ,p25

3 IBID ,p32

4 Julien Massicotte ,culture et herméneutique .L'interprétation dans œuvre de fernand dumont ,édition nota bene ,Québec ,2006 ,p15.

المجتمع في صورته الأولى أي في صورته التقليدية، وهو ما يصطلح عليه بالمجتمع التقليدي (la société traditionnelle) وهو بالنسبة لدومون « تاريخ حي سابق يشير الى بداية حركة الزمن، إنه بمثابة نموذج لسلوك بشري »⁽¹⁾ حيث تعتبر الأسطورة الملهم الأول لهذا المجتمع على اعتبار أنها شكل من أشكال التفكير الإنساني أعطى للإنسان مجموع أفكار شكلت بالنسبة اليه معنى وتصورات ورؤى حول العالم وكل ما يحيط به، وأجابته على مختلف الأسئلة التي كانت مصدر القلق بالنسبة اليه .

أما الثقافة الثانية فهي التي تبنى وتركب باستمرار تبعا للضرورة التاريخية والاجتماعية، أي تبعا لإفرازات العصر وإمكاناته، وهي تنتمي بالنسبة لدومون الى المجتمع الحديث (la société moderne) الأكثر تنظيما والذي له هياكل عديدة تعمل على ترسيخ رؤيته، «فهي في الواقع متعددة الأشكال. فلا يبدو بعضها إلا بوصفه قولا لا تمثله جماعة أو حزب أو دعامة ما، إلا بصورة متوقعة»⁽²⁾، فالهياكل الحديثة تعمل على ترسيخ وتجسيد رؤاها المختلفة في المجتمع بما يخدم أهدافها وتطلعاتها الآنية والمستقبلية. إننا بهذا مع دومون أمام رؤيتين رؤية صريحة للعالم لها هياكلها ومؤسساتها ورؤية ضمنية خفية للعالم موعلة في التاريخ تلففتها الأوساط الشعبية عبر مراحل مختلفة منذ اللحظات الأولى للمجتمع.

8/- الثقافة وأفق الحوار والتجديد :

إن الغاية التي يريدها دومون هنا ليس التطابق بالمعنى الإكويني (توما الإكويني) الساعي والباحث عن الحقيقة المتطابقة كلية مع الواقع، بل بالمعنى الغادامي (جورج هانز غادامير) الساعي «لدراسة سؤال الفهم كتطبيق (ad-equatio)»⁽³⁾، فالأول أراد الوصول الى الحقيقة بالبحث عن تطابق كلي بين «العقل والأشياء للوصول الى الحقيقة، لأن الحقيقة كانت تعني بأن يتطابق الذهن مع حالة العالم»⁽⁴⁾، أما الثاني فغاياته تقرب الذات نحو العالم لفهمه واستيعابه للوصول الى إمكانية أكبر للانسجام معه «فتقسيم المقولة (ad-equatio) من شأنه أن يبرز ليس التطابق التام بين الذهن والشيء ولكن العوم في أفق مشترك، أي النقل (ad) الذي يسعى لأن يتناسب (equatio) مع الشيء المراد فهمه. تنتقل الذات نحو العالم لتتناسب معه (نسبة أو علاقة) وتسبح في أفقه وهذا هو الفهم بالمعنى التأويلي عند غادامير»⁽⁵⁾. ما يعني أن الذات بصدد استنطاق العالم بوصفه علامة لكشف المكنون فيه بما يخدمها داخل سياقها الثقافي والاجتماعي، وهذا ما يجعل من تلك الرؤية رؤية نسبية لها زاويتها الخاصة بها، فمهما علا الجهد البشري فهو نسبي يفهم أشياء وتخفى عنه أشياء أخرى. هنالك أمور تكون صالحة وأخرى لا، ليحدث العكس في وقت لاحق. «ما أود قوله -والقول هنا لدومون- أن عالم «الحس المشترك» له استقبال مضاعف للمصطلح: بوصفه حقيقة ثابتة (comme vérité certaine) ، وبوصفه حقيقة مجمع

1 fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit ,p42

2 fernand dumont , les Idéologies ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1,op.cit P657

3 - محمد شوقي الزين ،الثقاف في الأزمنة العجاف ،فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب ،مرجع سابق ،ص478.

4 -المرجع نفسه ،الصفحة نفسها.

5 - المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

عليها (-comme vérité unanime-). هنالك عالم آخر من التغيير، من الممكن، من عدم اليقين»⁽¹⁾.

إن دومون بهذا عمل على إيجاد أفق تكون فيه إمكانية للحوار والتسامح والعيش معا، لأن تسبح مختلف الذوات وأن تستمع لبعضها البعض مصلحة الانسان ومثمرة له على اعتبار أنه مكسب الثقافات جميعها .

-الخاتمة :

إن الغاية من دراسة وتوضيح الرؤى النقدية والتجارب التي عاشها الآخرون، هو محاولة لتقريبها من وسطنا الفكري والمعرفي، وأخذها كتنوير ودعامة تمكنا من دراسة واقعا بأنجع الوسائل المتاحة لانتشاله من التخلف والتبعية التي يعاني منها على كل المستويات، فدومون كمثال نقدي درس واقعة بكل الوسائل العلمية والمنهجية التي يمكن أن تساعد في تحقيق مبتغاه معرفيا وعمليا، أي بما ينعكس على الواقع الكيبيكي بالإيجاب، وهذا ما نحتاج اليه لتجاوز النظرة المنكفئة على ذاتها والرافضة بحجة أو بأخرى لكل تنوير انساني يمكنه الاسهام في تطوير الواقع بما ينعكس بشكل ملموس على الفرد الجزائري ومن ورائه العربي الإسلامي .

1 fernand dumont ,le lieu de l'homme ,la culture comme distance et mémoire ,dans œuvres complètes de fernand dumont ,tome 1 ,op.cit ,p25